العبقرية والابداع والقيادة
دراسات في القياس التاريخي

تأليف : **وين كيث سايمنتن**
ترجمة: شاكر عبدالحميد
عالم المعرفة، الكويت، العدد 176، 327ص

مراجعة: **أحمد عبد الخالق**
قسم علم النفس - جامعة الكويت

درج المتخصصون في العلوم النفسية على قراءة مراجع القياس النفسي (أو السيكومتري)، وتعالج مثل هذه المراجع موضوعات على درجة عالية من الأهمية لأي متخصص في العلوم النفسية، كأسس القياس ومنطقه، وبناء الاختبارات النفسية، وأهم معالمها السيكومترية كالثبات والصدق والموضوعية... وغير ذلك كثير. ومن المعروف أن هؤلاء المتخصصين يكرسون جهودهم - على المستوى الزمني - في الحاضر إلى حد بعيد. ولكن لا يدخل في هذه الدراسة الاهتمام بأسئلة مثل: ما نسبة ذكاء الفيلسوف اليوناني أرسطو؟ ما أهم خصائص عباقرة القرن السابع عشر في أوربا؟ ما أهم الخصائص والسمات التي يتسم بها القادة والساسة في القرن التاسع عشر في منطقة معينة من العالم؟... وغير ذلك من الأسئلة التي تطرق فترة زمنية يمكن أن تصل إلى عشرين قرنا من الزمان.. وما ذلك إلا القياس التاريخي الذي يكرس له هذا الكتاب المهم صفحاته (327)ص، ويعد كتابا غير مسبوق في اللغة العربية وتخصصاً غير مطروق فيها. وهو كتاب مليء بعشرات من المعلومات الشائعة والطريفة عن المبدعين والعباقرة والقادة، وليس هذا فحسب، بل إنه أي الكتاب يهدف إلى وضع أسس لهذا القياس، والتوصل إلى بعض الاستنتاجات العامة التي يمكن أن تحكم بزوغ العبقرية ونموها فضلا عن العوامل التي تعد تربة خصبة لتلقى نبت هذه العبقرية أو النبوغ. لكل ذلك نهنىء القائمين على سلسلة عالم المعرفة على حسن اختيار هذا

الكتاب للترجمة إلى العربية.

وتصل سلامة الترجمة - على صعوبتها، وحسن الصياغة العربية وسلاستها - إلى حيث تصبح القراءة متعة، فقد صاغ المترجم عباراته بلسان عربي مبين وتكتمل الفائدة بشروح مهمة ولازمة ومفيدة، قدمهاالمترجم في هامش كثير من صفحات هذا الكتاب، بالإضافة إلى عدد قليل من الهوامش الشارحة التي قدمها المراجع.

ويضم هذا العمل الجليل بين دفتيه عشرة فصول وخمسة ملاحق وقائمة مستفيضة للمراجع، يقدم لها المترجم بمقدمة جيدة عن الأصل اللغوي لكلمة «عبقري»، واستخداماتها المتعددة في اللغة العربية، وكذلك في التراث الغربي، ويردف ذلك بتعريف دقيق للمصطلح في التراث السيكولوجي الحديث. وإن تحرير هذه المقدمة من لدن باحث متخصص ودارس متمكن في بحوث الإبداع والعبقرية، لهو بمثابة تحضير للمسرح، حتى يبدأ القارىء في مطالعة فصول هذا الكتاب المهم بشغف واهتمام.

ويرى المؤلف أن العبقرية مصطلح يضم الإبداع والقيادة، وهو لا يركز اهتمامه إلا على المستوى المرتفع منهما، ويعتقد المؤلف أننا إذا أخضعنا حياة النوابغ للتحليل العلمي فإننا سنتمكن من اكتشاف القوانين العامة للتاريخ. والسلوك الاجتماعي، ويبدأ أسلوبه باختيار وحدات التحليل: مجموعة من الفلاسفة، والعلماء، والموسيقيين، والسياسيين، والمعارك الحربية التاريخية، والتذوق الموسيقي، ثم يحدد المتغيرات الحاسمة في مثل هذا التحليل عن طريق عدد من التحليلات الاحصائية المتقدمة والمستخدمة في مجال علم النفس كالتحليل العاملي وتحليل المسار وتحليل سلاسل الزمن وغيرها. بعد ذلك يحدد العوامل الأساسية في العبقرية (كالمتصلة مثلا بالبيئة الأسرية أو المتغيرات الديموجرافية)، ويقوم بحساب العلاقات السببية الأكثر احتمالا.

ولقد أجرى المؤلف بحوثا عديدة حاول فيها أن يطبق الأساليب العلمية الكمية في البحث على السجلات التاريخية، والسجلات الخاصة بالسير، وذلك بهدف الكشف عن الكيفية التي أثر من خلالها بعض المبدعين والقادة على التاريخ.

ويبدأ المؤلف سفره الجليل بفصل عن «الدراسة العلمية لعباقرة التاريخ»، ويقتبس في البداية قول «توماس كارلايل» الشهير: «إن تاريخ العالم ما هو إلا سيرة الرجال العظماء». ويشير إلى الدراسات الشهيرة التي قام بها «سير فرانس جولتون» عن العبقرية الوراثية» عام 1869، وكتاب «كاترين كوكس» الموسوم: «الخصائص العقلية

المبكرة لثلاثمائة من العباقرة» عام 1926. ويجدر التمييز بين القياس التاريخي المتبع في هذا الكتاب والسيرة النفسية كدراسات سيجموند فرويد لكل من ليوناردو دافنشي ودستويفسكي، وودرو ولسون. كما يميز القياس التاريخي عن فلسفة التاريخ. ويشير في الاخير من بين ما يشير إلى مقدمة ابن خلدون، وأفكار كل من: أرنولد توينبى، وهيجل، حيث تتميز السيرة الذاتية وفلسفة التاريخ بالتحليل الكيفي على حين أن الخاصية الأساسية في القياس التاريخي هي التحليل الكمي واختيار عينات من أجيال محددة، أو سلاسل زمنية خاصة مثال ذلك دراسة الفروق في الشهرة بين 2012 فيلسوفاً، وبين 696 من مؤلفي الموسيقا الكلاسيكية، و38 رئيس جمهورية أمريكي، و301من العباقرة، أو التحليل الخاص بـ 326 معركة برية عالمية.

ومن بين نماذج النتائج الشائعة لتطبيق أسلوب القياس التاريخي ما يلي: عدم الاستقرار السياسي في جيل معين يعمل على كف الابداع في الجيل التالي له، وأن وجهة نظر العصر التالي هي الفضلى للحكم على الإنجاز العلمي لعصر من العصور، ولا يمكن القول بأن السيرة الإبداعية قد اكتملت ما لم يظهر نعي الفقيد، وأن التذوق الموسيقي يتضمن شكلا من أشكال الاستقرار التاريخي القابل للقياس، وأن متوسط العمر المتوقع لمشاهير المبدعين 66 عاماً بانحراف معياري قدره 14 عاما.

لقد قام عباقرة الماضي وقادته بتشكيل ذلك الماضي، والتأثير على الحاضر، وربما استمر تأثيرهم على المستقبل، وإن اخضاع شخصيات هؤلاء للتحليل العلمي يمكن أن يكشف عن بعض القوانين العامة حول التاريخ، والمبادىء الأساسية للإبداع، وحول تحولات الحضارة الإنسانية. والقياس التاريخي هو ذلك العلم المنوط به اكتشاف المبادىء العامة حول هذه الموضوعات من خلال تطبيق الأساليب الكمية على نماذج وقطاعات تاريخية.

أما الفصل الثاني فموضوعه «الأسلاف والمورثات والأجيال» ويعالج مشكلة سيكولوجية ذات تاريخ غير قصير، متعلقة بالوراثة والبيئة أو الطبع والتطبع، وينبه المؤلف إلى أن السلوك الانساني نتاج لتفاعلهما، برغم الأهمية النسبية لكل منهما. وقد درست بعض المؤثرات الأسرية لدى العباقرة والمشاهير ومنها ترتيب الميلاد فظهر أن الأطفال الأبكار (ذوي الترتيب المبكر) وبخاصة الذكور يميلون إلى الإنجاز أكثر من الأطفال ذوي الترتيب المتأخر في مولدهم. ونسبة العباقرة الأبكار أكثر من غيرهم في ترتيب الميلاد. ومع ذلك فإن الثوار يغلب ألا يكونوا من الأبكار. وكان تكرار اليتم

(فقد أحد الوالدين) قبل سن الرشد لدى العباقرة والمشهورين أكثر من المتوقع إحصائيا. وهناك أمر مشترك في سير الشعراء والطغاة والأبطال العسكريين هو أن أمهاتهم كن دائما من الأمهات المسيطرات المستحوذات. ومن الممكن أن تنتشر العبقرية في عائلات معينة (كعائلة دارون على سبيل المثال). كما أن للقدوة والمثل دورا مهما في العبقرية (أكثر من نصف الحائزين على جائزة نوبل في العلم تعلموا على أيدي بعض من سبق لهم الحصول على الجائزة ذاتها). واتضح أيضا أن سن الأربعين هو مركز الثقل أو سن الذروة في حياة معظم المبدعين. ويعد الإبداع في جيل ما معتمدا على الابداع في الجيلين السابقين عليه، وعصور الظلام لا تصبح عصورا ذهبية بين عشية وضحاها. كما أن احتمال قبول العلماء الأصغر سنا للأفكار الجديدة أكبر بدرجة واضحة من احتمال قبول العلماء الأكبر سنا لها. وكل هذه المكتشفات تثبت أن البيئة تقوم بدور أكبر بكثير من الوراثة في ظهور العبقرية.

ويعرض الفصل الثالث «للشخصية والطابع»، ويحاول أن يجيب عن السؤال الذي تكرر كثيرا: هل للمبدعين والقادة سمات شخصية مميزة لهم؟ لقد ظهر أن المشاهير يميلون إلى إظهار تنوع غير عادي في الاهتمامات (تفوق ليوناردو دافنشي في الرسم والنحت والهندسة والاختراع والفيزياء و(الاحياء والموسيقا)، وكذلك حب الاستطلاع والاستمرار في طرح التساؤلات، والدافع المرتفع للإنجاز، والانطواء، والحاجة إلى الجدة والتنوع، والنضج العقلي المبكر (بدأ «مل» مثلا في تعلم اليونانية في الثالثة، وقرأ أفلاطون في السابعة، ودرس الهندسة والجبر في الثامنة، وحساب التفاضل والتكامل في الحادية عشرة). كما وجدت علاقة بين الشهرة المتحققة ونسب الذكاء، ولكن الذكاء الزائد ربما يعوق القائد، ويجعله عاجزاً عن اجتذاب ولاء الأتباع، وظهر أن الملوك الأكثر ذكاء يعيشون أطول. ويؤكد الكاتب على خطأ مقولة «شوبنهاور» «بين العبقرية والجنون شعرة رفيعة»، فلم تؤكد الدراسات المضبوطة ذلك.

ويعالج الفصل الرابع مشكلة «التعليم» وعلاقته بالعبقرية، ويورد قول «آينشتاين»: «إن كون أساليب التدريس الحديثة لم تخنق حب الاستطلاع المقدس بعد فأمر يكاد يصل حد المعجزة... إذ يحتاج حب الاستطلاع إلى الحرية والحوافز». ومن الشائن أن نذكر أن «آينشتاين» لم يحصل على درجات (علامات) تؤهله للالتحاق بالدراسات العليا، واضطر للحصول على الدكتوراة بتقديمه إحدى مقالاته الأقل قيمة بوصفها رسالة للدكتوراة، و«اسحق نيوتن» لم يستمر في تعليمه إلى ما بعد درجة

البكالوريوس. ويستنتج المؤلف من فحص الأدلة أن التعليم العالي لا يساهم كثيرا في تطوير الإمكانية القيادية، ولكن العلاقة بين التعليم الرسمي ومراتب الشهرة أو بين الإبداع والتعليم علاقة منحنية. واتضح أيضا أن تطور الإمكانية الإبداعية قد يضعف من خلال التدريب الرسمي الزائد عن الحد. وهناك حقيقة مهمة مؤداها أن العلوم الطبيعية تجتذب أصحاب نسب الذكاء الأعلى، وتجتذب العلوم البيولوجية أصحاب العقول التي لا تبلغ تلك القمم المرتفعة، على حين تجتذب العلوم الاجتماعية أصحاب نسب ذكاء تقل عن هذا الحد.

أما الفصل الخامس والموسوم: «الانتاجية والنفوذ» فيعرض لمعدلات الانتاجية لدى العباقرة، فقد سجل «أديسون» 1093 براءة اختراع (وهو أكبر رقم مسجل في الولايات المتحدة حتى الآن)، وأنجز «آينشتاين» 248 مادة منشورة، و دارون» 119 مقالة، وألفرد بينيه» 277، ومؤلفات «باخ» الموسيقية تزيد على الألف، وقام «بيكاسو» بتنفيذ أكثر من عشرين ألف من الأعمال الفنية. ويذكرنا ذلك بقول «إديسون»: «إن العبقرية هي 1٪ إلهام و99٪ عرق جبين» ولكن عددا قليلا من العباقرة يعد مسؤولا عن عدد كبير من الانجازات (قانون لوتكه). ومع ذلك فيجب أن نقدر الكم على ضوء الكيف، فقد أنتج عالم الرياضيات «آرثر كيلي» مقالة كل أسبوعين أو ثلاثة ليصل إلى 995 مادة منشورة طوال حياته، على حين نشر «هنري بوانكاريه» 500 مقالة وثلاثين كتابا، وهو معدل أقل، إلا أن الأجيال التالية أبرزت تأثير «بوانكاريه» وفضله على مجال الرياضيات أكثر من «كيلي». ولكن البحوث الخاصة بالاحتمال بينت بوجه عام أن المبدعين الذين ينتجون أكثر تزداد فرص إنتاج الروائع عندهم.

ثم بحث المؤلف مشكلة العلاقة بين النضج العقلي المبكر ومعدلات الإنتاج وطول العمر، وهي عوامل ثلاثة تساهم في إنتاجية الفرد: بدء الإنتاج في بواكير العمر، ارتفاع معدل الإنتاج السنوي، طول المسيرة العلمية. فقد بدأ «موزارت» يؤلف وهو في عمر السادسة، وبدأ «دارون» و «آينشتاين» النشر في الثانية والعشرين من عمرهما، مما يشير إلى نضج عقلي مبكر. ومع ذلك فإن المعدل الوفير من الإنتاج يجعل من الممكن للمبدع أن يصل إلى الشهرة الفائقة برغم موته المبكر (الشاعران: «كيتس، شيلي» اللذان ماتا في عشرينات حياتهما). أما المكون الثالث فهو طول العمر الإنتاجي، فقد أملى «باخ» مؤلفه الموسيقى الأخير في الخامسة والستين وهو على فراش الموت، وأكمل «سرفانش» الجزء الثاني من «دون كيشوت » في الثامنة والستين عاما،

وابتكر «بنيامين فرانكلين» العدسات ثنائية البؤرة في الثامنة والسبعين، وكان «مايكل أنجلو» مايزال ينحت قبل ستة أيام من وفاته عن عمر يناهز التاسعة والثمانين. وبدأ «جان بياجيه» عالم النفس إسهامه العلمي وهو في الحادية عشرة، وظل ينتج على مدى ستين عاما تقريبا. ولكن يجب ألا ننسى أن بعض المبدعين يستنفدون قواهم عقب بداية مبكرة مثيرة للإعجاب، كما أن الموت المأساوي المبكر للعبقري أو القائد (جان دارك، جون كينيدي) قد يضخم من تأثيره بشكل لا يتناسب مع الإسهام الموضوعي له. ولكن لذلك بعض الاستثناءات، فقد بدأ الإسكندر الأكبر غزواته في العشرينات المبكرة من عمره، وأخضع كل المناطق المتحضرة من العالم الغربي تقريبا قبل أن يموت في الثالثة والثلاثين من عمره.

أما «العمر والانجاز» فهو موضوع الفصل السادس، وتقع ذروة العمر الإنتاجي حول سن الأربعين (شكسبير، تولستوى، مايكل أنجلو، نيوتن، بيتهوفن)، ومع ذلك فإن هناك مبدعين سبقوا هذه السن (آينشتاين، روسيني)، وهناك آخرون تأخروا عن هذه السن (كانط، كوبرنيكوس). وبرغم هذه الاستثناءات فإن قمة العمر الانتاجي تقع غالبا حول سن الأربعين. ومع ذلك فهناك فروق بين مجالات الإبداع المختلفة، فعمر الذروة بالنسبة لكتابة الشعر العظيم قد يسبق عمر الذروة الخاص بكتابة الروايات العظيمة بعقد من الزمان تقريبا، ويبلغ الإبداع في مجال الرياضيات ذروته في وقت أكثر تبكيراً من الإبداع في الجيولوجيا. وأنتج الشاعر الإنجليزي «تشاترتون» شعرا به ملامح العبقرية برغم موته في سن السابعة عشرة، وقدم عالم الرياضيات الفرنسي «جالوا» إسهامات مهمة قبل أن يموت في مبارزة وهو في العشرين من عمره، ويتمتع الفلاسفة بحياة أطول بشكل لافت للنظر، أما المجموعة ذات المتوسط الأدنى في العمر فهى مجموعة الموسيقيين، ويعيش ذوو النزعة الثورية حياة أقصر. وكلما تقدم الملك المتفرد بالسلطة في العمر قل احتمال غزوه لقطر آخر ، ويقل احتمال إحراز جيوشه لنصر حربي. على حين تقل احتمالات هزيمة الملوك في ميدان المعارك إلى أقصى درجة عند عمر الثانية والأربعين تقريبا. ويميل معظم مشاهير المبدعين والقادة إما إلى أن يعيشوا حياة مأساوية في قصرها، أو حياة طويلة جدا، ويستنتج من عديد من البحوث أن الإبداع دالة لمتغيرين أساسيين هما: الحماسة والخبرة، ومن المفترض أن معظم المبدعين يموتون وقد حبس داخل رؤوسهم ما يترواح بين ربع الطاقة الإبداعية وثلثها، ذلك أن القدرة البيولوجية على البقاء، وليس المقدرة العقلية، هي التي تضع

القيد الأكبر على ناتج الحياة الاجمالي.

ويعرض الفصل السابع لموضوع الاستطيقا (علم الجمال أساسا) والكارزما (الشخصية الآسرة الأخاذة الجاذبة)، والجامع بينهما أن كلا منهما يقوم على إحساس ذاتي عميق، فكلاهما يعتمد على قدرة العبقري على الاستثارة المباشرة للانفعالات.

ولقد قام «برلين» «بتطوير نموذج الاستثارة المثالية»، إذ يرى أن الخبرات الاستطيقية تستثير العقل، وترفع مستوى الاستثارة الحسية إلى مستوى سار معين، وتنشأ إمكانية التنبيه بفعل خصائص مثل التعقيد والجدة والإدهاش والغموض، وكشفت دراسة أبرز عشرة مؤلفين للموسيقا الكلاسيكية أن هؤلاء قد أبدعوا أشد ألحانهم أصالة خلال الفترات التي كانوا يواجهون فيها أكثر تحديات حياتهم شدة ومشقة. وفي دراسة على القائد الكفء وما لديه من كارزما وسمات شخصية، برهن «رسل» على أن القائد تتراكم عنه نقاط تجعله شخصاً كارزمياً إذا ألصقت صورته الشخصية، أو وضعت بطريقة بارزة في الأماكن العامة والمنازل، واذا ظهر تمثال للزعيم في عاصمة الأمة خلال توليه مقاليد الحكم، وإذا اعتبر موحداً للدولة في اتجاه هدف عظيم، وعلى أن يقودها إلى النصر العسكري ضد الأعداء الخطرين، واذا كان هذا القائد يلقي خطباً طويلة، ولا يبالي في تقديره للأمور الاقتصادية الأساسية، وإذا كان لدى الناس الرغبة في القيام بتضحيات شخصية من أجله، وإذا كان يتصف ببعض الفحولة. واتضح أن هناك عاملا مهما في الشعبية الرئاسية هو أنه كلما حدثت أزمة دولية فإن الميل إلى الالتفاف حول الكلمة يؤدي إلى تدعيم شعبية الرئيس «الفشل في خليج الخنازير رفع مكانة كيندي أمام الشعب الأمريكي»، ولكن شعبية الرئيس تتضرر عندما تسوء الحالة الاقتصادية أو تتزايد البطالة.

أما الفصل الثامن فيعرض لـ «روح العصر»، ويذكر المؤلف أن بعض النشاطات الإبداعية تتجمع معا بطريقة غامضة عبر التاريخ. فقد تواكب ظهور أشهر المفكرين في العلم خلال مسار الحضارة الغربية مع ظهور المبدعين في الفلسفة والأدب والموسيقا، مما دعا بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن روح العصر Zeitgeist هي التي تحدد الطريقة التي تكشف بها العبقرية عن نفسها. وفي هذا الصدد يبرز تفسيران يكمل أحدهما الآخر: وهما أن التاريخ يسير في تقدم مطرد مع وجود دورات تعاود الحدوث. ويبرز المؤلف حقيقة مؤداها أن بعض البيئات الثقافية الاجتماعية تساند ظهور المفكرين أكثر من غيرها، وأن للمناخ الاجتماعي الاقتصادي العام أثراً كبيراً بما

يمكن أن يتمخض عنه من عصور ذهبية. وقد أثبت عالم الاجتماع الأمريكي «سوروكن» أن الرخاء الاقتصادي يميل إلى أن يدفع الناس بعيداً عن العبادة، سعياً وراء المصالح المادية، كما توجد علاقة مماثلة بين الكساد الاقتصادي وشيوع التنجيم والغيبيات. ويبدو أن التفتت السياسي ممهد للارتفاع الإبداعي المفاجىء، ووجد أحد مؤرخي الحضارة الإسلامية أن الإبداع قد انتعش خلال حقبة الإمارات عندما كان الخلفاء ضعفاء، وكان الأمراء يحارب بعضهم بعضاً. ويؤكد ذلك ما خلص إليه «توينبي» من علاقة سالبة بين نمو الدولة الشاملة وامتدادها وبين النشاط الإبداعي في حضارة ما، وما ذكره «كروبير» من ندرة الإنجازات الفائقة لدى الأمم الخاضعة للقمع، وما أورده «سوروكن» من أن عديدا من الأمم تصل إلى ذروة إبداعها في مجالات كثيرة بعد تحررها من السيطرة الأجنبية. ومن ناحية أخرى هناك رأيان متقابلان في علاقة العبقري بعصره أولهما: أن روح العصر هي التي تتحكم في العبقرية، وأن العبقري الشهير ليس أكثر من لسان حال عصره، أو هو بوتقة تنصهر فيها القضايا الاجتماعية والثقافية المتنوعة. وثانيهما: أن تاريخ ما أنجزه الإنسان في هذا العالم ما هو الا تاريخ الرجال العظماء (فكرة كارلايل)، كأن نقول «عصر فولتير».

ويؤكد «سوروكن» على أن القادة يمنحون أسماءهم لعصورهم، فوجد أن الملوك العظماء يعيشون وقتا أطول من الملوك متوسطي القيمة. كما اتضح أن الملوك الذين يتميز عهدهم بأكبر عدد ممكن من الأحداث يميلون إلى أن يكونوا إما عديمي الأخلاق تماماً أو يتمتعوا بالفضيلة التامة. أما المؤلف فيرجح التفاعل بين العبقري وعصره.

والعنف السياسي هو موضوع الفصل التاسع، ويورد المؤلف قول «فولتير» من أن «التاريخ ليس أكثر من صورة للجرائم والمحن الإنسانية». والتاريخ أيضاً هو قصة الغزوات والمؤامرات والمعارك والثورات. وقد درس بعض الباحثين محددات الشَّغَب والتحرر والاضطرابات الداخلية، وظهر أنها تتأثر بأربعة عوامل كما يلي: **أولا**، الزيادة المفاجئة غير العادية في ضغط السكان. **ثانيا**، الزيادة الحادة في نسبة صغار الراشدين من الذكور، **ثالثاً**، تؤدي معدلات الخصوبة المرتفعة إلى وجود أسر كبيرة في بيوت تكتظ بالسكان وتعد تربة خصبة لثوار المستقبل. **رابعاً**، تبلغ الفترة الفاصلة بين ضغط السكان وبين العنف السياسي الداخلي حوالي 25 سنة، مع وجود زيادة أو نقصان مقدارها أربع سنوات. وتدعم البيانات المتاحة هذا النموذج. ولا يؤدي الاضطراب

السياسي إلى خفض العدد الكلي للعقول الفلسفية العظيمة فحسب، بل إلى خفض نسبة العباقرة العظام إلى من يقلون عنهم في الموهبة. ويتضمن قانون الاستقطاب أثراً تفاعلياً بين الأجيال، فالاضطرابات المدنية تستقطب المعتقدات في الجيل التالي لها بدلا من الجيل المعاصر لحدوثها، والصراعات السياسية لدى أحد الأجيال تغدو صراعات فلسفية لدى الجيل التالي. والحروب الدولية أسوأ الكوارث على وجه الأرض، وهي تؤثر سلبياً على النشاط الثقافي والعقلي. ولقد قيل: إن الحروب نتاج خبيث لأحد «العباقرة الأشرار» ، حيث لا يمكن إنكار دور الشخصية الفردية في تشكيل السياسة الخارجية، ولكن الحروب لا تحدث جميعها بمثل هذه الطريقة، كما أن سياقاً أيديولوجيا معينا قد يعمل على زيادة احتمالات نشوب الحرب. ولكن خبرة الحرب يمكن أن تعمل على ظهور جماعة محبة نسبياً للسلام.

ويعرض الفصل العاشر والأخير لقوانين القياس التاريخي، فيذكر المؤلف أن هذا القياس قد كشف عن قدر كبير من المعلومات الخاصة بمشاهير المبدعين والقادة، وعن العوامل الأساسية التي تقوم بدور كبير في تحديد مسار الأحداث التاريخية. ويلخص طرفاً من النتائج المهمة التي توصل إليها في الفصول السابقة.

وفي غمار هذا العدد الكبير من المعلومات الشائعة والقيمة عن العباقرة والقادة والمبدعين يجب أن نحذر من الأخذ بنتائج هذه الدراسة النفسية التاريخية دون نقد أو تمحيص. كما يتعين ألا نغتر بنتائج تطبيق الأساليب الإحصائية المتقدمة على مادة مراوغة متملصة لا تقع تحت الضبط إلا قليلاً، ويذكرنا ذلك بقول عالم النفس الانجليزي «سيرل بيرت»: «إن الاحصاء خادم مطيع ولكنه سيد سيئ». ويؤكد ذلك قول مؤلف هذا الكتاب نفسه (ص 279) من أن النتائج التي توصل إليها تعد اتجاهات احتمالية أكثر منها قوانين. وهو أمر نبه إليه القائم على مراجعة ترجمة هذا الكتاب (ص 224 هـ)، إذ يقول معقبا على إحدى النتائج الإحصائية: «إن العقيدة تصنع الإحصاءات، ولكن الإحصاءات لا تصنع العقيدة»، كل ذلك على ضوء كون العبقرية والإبداع والقيادة ظواهر على درجة عالية من التعقيد وتعدد العوامل المساهمة في نشأتها والمعدلة لمسارها.

ومن ناحية أخرى فإن هذا المؤلف خلال وضعه لأسس القياس التاريخي وتوضيح نماذجه البارزة يغفل إغفالاً يكاد يكون تاما ما جاءت به العبقرية العربية إبان ازدهارها في أزهى عصورها في الوقت الذي كانت فيه الحضارة الغربية في أسوأ

حالاتها وأظلم عصورها. وذلك باستثناء الإشارة السريعة والمبتسرة التي قام بها المؤلف في مواضع جد محدودة لوقائع تعد على أصابع اليد الواحدة لأمور متصلة بالحضارة العربية، مثل: عمر نبينا الكريم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند نزول الوحي عليه: عمر الأربعين (ص 164). فضلا عن الإشارة السريعة إلى فلسفة التاريخ عند المؤرخ المسلم ابن خلدون في موضعين (ص 19، ص 212). ولعل عذره أن كثيراً من التفاصيل عن حياة هؤلاء العباقرة العرب غير متاح، وذلك في مقابل كثير من البيانات المغرقة في التفصيل عن الحياة الشخصية الحميمة لأمثال نيوتن وبيتهوفن وآينشتاين وهيجل وموزارت وبسمارك وجون كيندي وغيرهم.

تأملات في مسألة الأقليات

سعد الدين إبراهيم

دار سعاد الصباح، القاهرة، 1992 ,246 ص

مراجعة: **محمد حسين غلوم**

قسم الاجتماع - جامعة الكويت

اهتم الفكر القومي في سعيه نحو الدعوة إلى الوحدة العربية بالتركيز على الخصائص المشتركة التي تجمع أبناء الأمة العربية، مغفلاً الاشارة إلى تلك التكوينات البشرية والعرقية (الاثنية) التي تختلف عن الأغلبية الرئيسية سواء في الدين أو اللغة أو الثقافة أو السلالة، والتي تشكل ما مجموعه 15 بالمائة من عدد سكان الوطن العربي، وإذا كان الفكر القومي جاداً في إيجاد طريق عملي نحو الوحدة العربية الشاملة فإنه لابد من إيجاد حَلّ لِمسألة الأقليات المنتشرة في المجتمعات العربية من مشرقها إلى مغربها، حَلّ يعطي هذه الأقليات شعوراً بالاطمئنان السياسي والاجتماعي ويبعدها عن أوهام التقوقع الاجتماعي أو الانفصال السياسي، عبر آليات سياسية تضمن الحقوق الكاملة لأبناء هذه الأمة بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية أو اللغوية أو الثقافية، وهذا ما يرمي إليه الكتاب الذي بين أيدينا، «تأملات في مسألة الأقليات» لسعد الدين إبراهيم والذي يقع في 246 صفحة من القطع المتوسط، ومقسمٌ إلى خمسة فصول.

ويستهل سعد الدين إبراهيم فصله الأول بمحاولة تحديد مفهوم الجماعة الاثنية الذي يتركز على بعدين: الموضوعي والذاتي. أما الأول فهو وجود الاختلاف الفعلي